شفيق غربال

بحث فى منهجه وأحكامه التاريخية

للأستاذ أحمد خاكى

مقدمة:

لست أريد أن يكون البحث في المنهج التاريخى عند شفيق غربال ، بحثاً شاملا فياضاً ، ولكنى أطمع فى أن ألم إلمامة بوجهين من وجوه التأليف التاريخى عند أستاذنا رحمه الله ، أما الألمامة الأولى فهى التأريخ : أى كتابة التاريخ نفسه ، وأما الإلمامة الأخرى فهى الثقافة التاريخية التى تنتهى إليها قراءة التاريخ والأحكام التاريخية التى ينتهى إليها المنهج .

الإلمامة الأولى عندنا تتناول مؤلفات شفيق غربال وخاصة فى كتابه الأول الذى ألفه بالإنجليزية« بدايات المسألة المصرية وقيام محمد على » . وفي كتابه الثانى عن « محمد على الكبير » . وفى كتابه الثالث عن « تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية حتى سنة ١٩٣٦ » ، والإلمامة الثانية تتمثل في محاضراته وأحاديثه ومقالاته وتعليقاته ، وهى التى انتهت بمقال له عن « الآراء والحركات فى تاريخ الإسلام » ، وبمحاضراته العشر التى جمعت فى كتاب « تكوين مصر » وأصلها باللغة الإنجليزية .

نقول إن هاتين النظرتين من منهج التأريخ ومن الثقافة التاريخية، قد صحبت كل منهما الأخرى في حياة شفيق غربال قرابة أربعين عاما ، بدأت منذ دراسته فى إنجلترا التى انتهى منها فى سنة ١٩٢٥ ، ولبثتا حتى وفاته إلى رحمة الله فى الثامن

عشر من أكتوبر سنة ١٩٦١ ، بل لا تزل النظرتان ماثلتين فى الكتب التى ألفها ، وفى المقالات التى دبجها ، وفى المقدمات والتعليقات التى أقر بها الرسائل العلمية التى أشرف على تحريرها ، بل إن النظرتين تتمثلان أيضاً ، وبنوع خاص ، فى فئات التلاميذ الذين كان لهم الحظ أن يستمعوا إليه وأن يتابعوا تقاليده ، وأن يفيدوا من ثقافته الفائضة .

(١) بدايات المسألة المصرية وقيام محمد على(*)

لشفيق غربال إذن نظرتان كمؤرخ : النظرة الأولى واتته وهو يكتب التاريخ ونطلق عليها لفظ « التأريخ » ، كما قدمنا، وتشمل هذه النظرة قراءة النصوص ، واستقراء الوثائق وفحصها، والقياس على الوقائع الثابتة ،واعتبار الظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التى تتحكم فى الوقائع السياسية ، ثم النزعات الفردية والنزوات الشخصية التى كانت السبب المباشر فى تصرفات الرجال . . كل هذه هى المواطن والمظان التى ينبغى أن يلم بها المؤرخ ويأتى فيها بالقول الفصل . وقد كان شفيق غربال من أكبر الذين اتخذوا هذا المنهج التاريخى ،ويبدو ذلك فى كتابه الأول «بدايات المسألة المصرية وقيام محمد على » وقد كانت بعض فصوله رسالة تقدم بها لنيل أجازة البكالوريس من جامعة ليفربول ،ثم أتمها ونال بها درجة الماجستير من جامعة لندن ، والكتاب طبع ونشر سنة ١٩٢٨ .

ويجمل بنا أن نذكر أنها كانت رسالة جامعية ، وأنه كان فى كتابتها متوقد الذهن موفور الانتباه ، وأنه كان مطالبا — كأى طالب جامعى — بألا يكتب فقرة واحدة ولا يبدى رأيا واحدا إلا مؤيدا بمصادره وأسانيده . فإلى جانب أن ذلك كان تدريبا حقيقيا على كتابة التاريخ ، إلا أن الرسالة جاءت مثلا من

[*] «The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali » by Shafik Chorbal .

أمثلة التاريخ بمعناه الفنى ، فما انساق وراء الآراء الشائعة ، ولا الخزعبلات التى ورثها العامة ، وكاد يصدقها الخاصة . وكانت أبواب التاريخ جميعاً مفتحة أمامه ، فنظر من خلالها وتدبر ، واستطاع بالمقارنة والموازنة ، أن يخلص بهذه الرسالة التى كانت باكورة أعماله ، وكانت فى نفس الوقت مثلا من أمثلة التأريخ الفنى .

والفكر الإنسانى فى أحسن مناهجه ، ينتقل من التحليل إلى التركيب ، ثم من التركيب إلى التحليل ، وهكذا دواليك ، ويظل عاملا فى هاتين الناحيتين حتى ينتهى من الموازنة والمقارنة إلى نوع من أنواع المصالحة هى التى يطمئن إليها فيرسلها أحكاما

وليس غريبا أن يبدأ مؤرخ مثل شفيق غربال بالناحية التحليلية ، وليس غريبا أن تؤدى به هذه الناحية إلى مراق أخرى من التركيب الذهنى . وقد وضح ذلك كل التوضيح فى أخريات أيامه ، واعترف بحاجته إلى التنظيم الذهنى والتركيب الفكرى فى بعض أحاديثه الأخيرة ، ولكن قوته التحليلية تبدو فيما نحن بصدده من تعقيب على رسالته الأولى عن « بدايات المسألة المصرية وقيام محمد على » .

كتب جزءا من الرسالة — هو الجزء الثانى — تحت إشراف الأستاذ « أرنولد توينبى » وهو من نعلم مكانته فى عالم تاريخ الحضارات ، وجاء فى المقدمة التى كتبها توينبى لهذا الكتاب ، ، ثناء صادق على المنهج الذى اتخذه شفيق غربال فى تأليف كتابه .

على أن شفيق غربال لم يقتصر على الوثائق التى لم تنشر ، بل لقد رجع الى أكثر من مائتين وخمسين من مختلف المصادر قسمها الى ثمان فئات ، ولا تكاد تخلو صفحة من صفحات الكتاب من الهوامش التى ترجع الدارس الى هـذه المؤلفات ، بل لم يكد يبدى رأيا أو ينقض رأيا الا أثبت المصدر الذى استند اليه . وهكذا استطاع شفيق غربال وبعض أترابه أن يقيموا مدرسة الفحص التاريخى فى مصر ، فهو ينخل

الآراء جميعا ويضاهى كلا منها بما يوائمه أو يعارضه ، واستقامت له فى آخر الأمر تلك الدراسة التاريخية العميقة التى ضمنها كتابه عن « بدايات المسألة المصرية وقيام محمد على » .

بل ولا يقتصر الأمر على استقراء الحوادث ولا القياس عليها ولا تقويمها ، بل كان شفيق غربال يقوم دائما بتصوير الشخصيات التى كان فى صدد الحديث عنها أنه يصف هذه الشخصيات بحيث تستطيع أنت أن تراها وأن تفسر السلوك الذى تسلكه فى الحوادث التى شغلتها . والى جانب نابليون وكليبر ، ومينو ، وغير هؤلاء من قادة الحملة الفرنسية ، نعرض عليك صوراً لأولئك الذين كانوا يعملون فى الحقل الدبلوماسى ، من أتراك ، وفرنسيين ، وانجليز ، وروس ، ونمساويين ، من أمثال الريس أفندى ، وسدنى سميث ، ولورد الجين ، وكاتنج . هذا الى جانب تصويره للشخصيات التى قامت فى مصر والتى قام بينها النزاع على السلطة : مثل محمد على نفسه ، وعمر مكرم ، وعلماء الأزهر ، والألفى .

لنذكر أن العنوان الثانوى لهذا الكتاب ، هو « دراسة فى دبلوماسية عصر نابليون على أساس بحوث فى الوثائق البريطانية والفرنسية » (١) ، وأن الموضوع بوجه عام ، كما قال « أرنولد توينبى » يستحق أن يدرس من الوجهة التاريخية الفنية ، وأن شفيق غربال كان مؤهلا لأن يقوم بمثل هذه المهمة ، لأنه كان يجمع فى فى عطفيه اثنتين : كان يتمتع بالملكة التاريخية الخالصة ، كما كان مثقفا بثقافة بلاده — ولكنه كان يتفحص هذه الوثائق والمصادر — كما قال عنه « أرنولد توينبى »

---

(1) A Study in the Diplomacy of the Napoleonic Era Based on Researches in the British and French Archives".

أيضا — بالنزاهة المطلقة التى يجب أن يتحلى بها مؤرخ الحوادث ، وبلغ من ذلك — فى رأى توينبى — أنه إذا قرأ قارىء هـذا الـكتاب من غير أن يعلم من مؤلفه ، لما استطاع أن يدرك أنه مصرى فقد توخى فى دراسة الوثائق والمصادر ، ما يتوخاه دائما المؤرخون الفنيون من حيث الحياد فى تقويم الأشخاص والحوادث — من غير أن يطوح بهم الهوى أو التحامل أو العاطفة أو الموجدة .

ثم هل كان هـذا الـكتاب فتحا جديداً فى تاريخ هـذه الملاقات الدبلوماسية التى تصدى للبحث منها ؟ . ان فضل هـذا الـكتاب فى نظرنا — الى جانب هذه القيمة التاريخية — هو أنه أثبت أن المسألة المصرية ، كانت شعبة مهمة من المسألة الشرقية وأننا لانستطيع أن نفسر حملة بونابرت على مصر نفسها ، ولا جلاء هذه الحملة ، ولا الإتفاقات التى تلتها ، ولا قيام محمد على ، ولا حملة « فريزر » على مصر ، ولا غير ذلك من الأحداث ، إلا إذا ربطنا بين كل ذلك وبين المؤثرات والدسائس ، والمفاوضات التى كانت تجرى بين دول أوربا وأهمها : بريطانيا ، وفرنسا ، وروسيا ، والنمسا ، وتركيا .

وفضـل آخر لهـذا الـكتاب ، هو أنه فتح آفاقا جديدة فى تاريخ الشعب المصرى الذى كان يعيش الأيام السوداء تحت حـكم المماليك ، والذى عانى أشـد ما يعانيه بلد أو مجموعة من البلاد فى السنوات الخمس التى تلت حملة نابليون بونابرت وسبقت قيام محمد على والسنوات الخمس الأخرى التى تلت قيام محمد على . لقد درس شفيق غربال « الجبرتى » دراسة فاحصة ، ونقل عن ترجمتـه الفرنسية أجزاء عديدة حتى يبين موقف أهـل مصر من كل ذلك . وعلى الرغم من أن الـكتاب تاريخ دبلوماسى ، إلا أن شفيق غربال صور لنـا صـورة بائسة للشعب المصرى ، وفى نفس الوقت ينقـل إلينـا فى كتابه أجزاء من تقـارير كتبها الرحالة

الإنجليز ، والفرنسيون ، وقناصل الدول ، أيام الحملة الفرنسية وبعدها .

فضل هذا الكتاب الأكبر إذن ، هو أنه ملأ فراغا كان قد أهمله المؤرخون الغربيون ، حين عرضوا التاريخ الدبلوماسى بين الشرق والغرب ، فقد سلك المسألة المصرية فى عداد المسائل المتشابكة التى كانت تتكون منها « المسألة الشرقية » فى أسرارها ، واستطاع دارسو التاريخ المصرى — بعد ذلك — أن يدركوا الأطماع السياسية التى كانت تلعب وراء مظاهر السياسة والحرية ، وهو إلى جانب ذلك قد فتح فتحا جديدا فى تاريخ مصر ، إذ أن تلامذة شفيق غربال تعلموا على يديه هذه البراعة فى كتابة التاريخ : فى استقراء النصوص ، وفحص الأضابير ، ثم عرض كل ذلك فى أسلوب سهل أخاذ . ولا شك أن المدرسة التاريخية الحديثة مدينة لشفيق غربال بهذا الاتجاه الفنى الذى تحدثت عنه ، فقد قام كتاب ومؤرخون أفاضل يرجعون إلى الوثائق التاريخية ، وإلى الكتب القديمة والجديدة ، وإلى الرسائل والتقارير ، واستطاعوا بذلك أن يقوموا بكتابة بحوث عن مصر فى كل عصر من عصورها ، وانتهج تلامذته منهجه حتى فى دراسة العصور القديمة والوسطى ، ثم فى دراسة الأحداث السياسية الدولية التى حاقت بمصر فى أخريات عصر « محمد على » ، ثم فى سنة ١٨٨٠ ، وفى سنة ١٩٠٤ ، وفى سنة ١٩١٤ ، وفى سنة ١٩١٩ ، وفى سنة ١٩٣٦ ، ثم فى سنة ١٩٥٢ — وعلى هذه المدارس أن تبصرنا بهذه الدبلوماسية التى حامت حولنا فى سنة ١٩٥٦ ، وسنة ١٩٦٧ ، ثم هى لا تزال تحوم من حولنا فى هذه السنة التى نعيش فيها ، فكل هذه سنوات تدل على ما وراءها من دسائس ومؤامرات وخدع ونزعات واتجاهات .

* * *

تلك إذن هى النظرة الأولى التى زعمنا فى صدر هذا الحديث ، أنها تمثل اتجاه المؤرخ الفنى فى شخص شفيق غربال، ولكن هل كان شفيق غربال حقا مؤرخا محايدا لا يهتز للنصوص إلا بمقدار ما يحكم عقله فى مبناها ومعناها ؟ ، هل نفهم من « أرنولد توينبى » أنه كان كاتبا لا لون له ولا اتجاه ولا فلسفة ينم عنها حديثه أو كلامه أو كتابته ؟ . إن مؤرخا مثل « جيبون » لم يكن يستطيع أن ينكر آراءه ، ولا عقائده ، ولا اتجاهاته فى كتابه الضخم عن إضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، وكذلك نلمح حتى فى هذا المؤلف الموضوعى شخصية شفيق غربال المؤرخ المصرى ، ولا نقصد فى ذلك فقط روح الفكاهة المصرية التى تبدو فى وصف سلوك رجل مثل الألفى ، ولكننا نقصد أن تعقيباته على الحوادث بعد أن يؤلف بينها عن مقدار الأسى الذى كان يعانيه — وينقلب هذا الأسى إلى سخط فى أحيان ، وينقلب إلى أمل فى المستقبل القريب أو البعيد فى أحيان أخرى ، فهو يقتبس من الجبرتى قوله فى أحد المواقف : «إن العاقل من لايصلح الخراب» ، ويمكنك أن تقدر ما يحز مثل هذا الكلام فى نفس المؤرخ الذى يحاول أن يتصور الخمس السنوات التى سبقت قيام محمد على وتثبيته على ولاية مصر فى سنة ١٨٠٥ ، ويمكنك أن تقدر مشاعره عندما يصور الجشع والنقمة والضراوة التى استخدمها محمد على فى حكمه حتى يؤسس حكومة مركزية تسيطر على مصر وتتسع ، فيظل سلطانه بقية البلاد حواليه . ويبسط شفيق غربال جهود محمد على فى إنشاء هذه الحكومة المركزية فى كتاب « محمد على الكبير » .

(٢) محمد على الكبير

خرج « كتاب محمد على الكبير » فى سلسلة أعلام الإسلام فى شهر أكتوبر سنة ١٩٤٤ ، ولا يقع إلا فى ١٦٤ صفحة من الحجم المتوسط ، كما وقعت أجزاء

أخرى من هـذه السلسلة ، فقد كانت الحرب العالمية الثانية قائمة لم تضع كل أوزارها ، وكان الورق غير موفور ، ولذلك فقد أتى الكتاب محدود الحجم ، ولكنه كان يحتوى أحكاما قيمة على « تصرفات » محمد على ، وتطلبت هـذه الأحكام إيراد الأسس والوقائع التى بنيت عليها الأسس والوقائع فى حبكة مختصرة تقتضى القارئ أن يلم بها وبأكثر منها قبل أن يقتنع بهذه الأحكام .

هنا يختلف شفيق غربال عن نفسه أولا ، ثم يختلف عن غيره ثانيا ، ومنهج البحث فى هذا الكتاب يقوم على فحص الوثائق والمؤلفات والمراجع ، لكن المؤلف فيه لم يعن بأن يورد مثل الهوامش الكثيفة التى وردت فى كتابه الأول ، فالناحية التركيبية فى هذا الكتاب أظهر من الناحية التحليلية ، وهو يختلف أيضا عن مؤلف مثل عبد الرحمن الرافعى ، فإن عبد الرحمن الرافعى كتب « عصر محمد على » فى ٦٥٠ صفحة من الحجم الكبير ، وكلف نفسه أن يسرد التاريخ ويورد التفاصيل ، ويحقق الأرقام والأمكنة ، وكل ذلك لم يكن مما عنى به شفيق غربال فى هذا الكتاب ، ويتفق الإثنان — بعد ذلك — فى أنهما يكادان يرجعان نفس المؤلفات والكتب ونفس النصوص والوثائق ، لكنهما يختلفان فى تفسير النصوص والوثائق .

ثم هناك اختلاف آخر بين المؤرخين : فعبد الرحمن الرافعى يرى أن قيام محمد على وعصره ، ما هو إلا جزء من الحركة القومية التى انتهت بظهور مصطفى كامل ، ثم مضت إلى اليوم الذى كان يكتب فيه ، ولذلك فقد تراوحت أحكامه على محمد على بحسب الحوادث القومية التى آلى على نفسه أن يسردها على طريقة الراوية الصحافى ، أما شفيق غربال فإنه يباديك بالصورة العامة من ناحية السياسة العالمية ، وموقف تركيا بين دول أوربا ، وموقفها من حيث أنها حارسة لما سمى «دار الاسلام»

وهو يرسم لك خلفية لصورة مصر فى سكونها واستسلامها للخراب ، وفى العبودية التى كانت تئن تحت نيرها — وبعد كل هذه الصور ، يخرج إلى المسرح « محمد على الكبير » لندرك تاريخ مصر وموقفها أمام هذه الخلفية المرسومة ، وندرك موقف محمد على من كل ذلك إذا كان قد أحسن إليها أو أساء .

هل كان كتابه عن محمد على مثلا من أمثلة عبادة الأبطال التى اشتهر بها مؤرخون مثل « كارليل » ؟ . لقد ذهب البعض إلى الأخذ بهذا الرأى ، وتقتضى الكتابة عن البطل فى رأى هؤلاء ، أن يكبر المؤلف من حسناته ويمجدها ، وأن يغضى عن سيئاته ويبررها ، وظاهر فى كتاب « محمد على الكبير » أن شفيق غربال لم تفته فرصة إلا وسوغ مسلك محمد على ، فالكتاب إذن من هذا الصنف الذى كتبه « كارليل » عن أبطاله وألفه « ماكولى » عن بناة إمبراطوريته ، وفى نفس الوقت الذى انتهى فيه شفيق غربال فى كتابه الأول بوصف الجشع الذى أبداه محمد على فى تأييد سلطانه ، فإنه يلتمس العذر كل العذر فى كتابه الثانى ، لكل تصرف من تصرفات محمد على حتى إذا كانت نابية عن العدل متجافية وحقوق المصريين أفراداً وجماعات .

وحينما يحلل مؤرخو الأدب موقف « كارليل » من أبطاله ، يرجعون عبادته الأبطال إلى تأثره الشديد بفلسفة الفرد القوى التى كان يدعو لها « نيتشه » .

كان « كارليل » يرى أن التاريخ ليس إلا سلسلة طويلة لأفراد عظماء ظهروا على مر العصور : كل منهم ترك أثرا حميدا فى حياة الجماعة التى عاش فيها ، وأثرا خالدا فى حياة العالم بوجه عام . وليس محمد — صلى الله عليه وسلم — ولا شكسبير ، ولا أى من أبطاله ، إلا المثل الأعلى للفرد الذى استطاع أن يطوع الدين أو الأدب أو التاريخ لتتوافق مع المثل الأعلى الذى عاش من أجله ، ويبدو

أن كاتب السيرة يبدؤها بأن يصور لنفسه النمط الكامل الذى يريد أن يكونه البطل الذى يكتب عنه : إنه يصوره فى صورة الكمال الذى يكاد يكون مطلقا ، ثم يحاول بعد ذلك أن يطبق الصورة المثالية التى ابتدعها فى عالم الخيال على البطل الذى يقدسه فى حياة الواقع . هذا هو الذى حدث عندما كتب « كارليل » ما كتبه عن أبطاله العظماء ، وهذا فيما يبدو هو الذى حدث عندما كتب شفيق غربال عن محمد على .

* * *

كان مسرح الحوادث التى اشترك فيها وسيطر عليها محمد على — فيما بعد — مسرحاً من الخراب والدمار والبوار ، وكان يلعب على هذا المسرح فئات من الخلق كل فئة منها تسعى لذات نفسها لم تجمعها رحم ، ولا ربطت بينها أوشاج المحبة والقربى حاكم عثمانى مسلم لايتسلم عمله فى مصر حتى يرسل عليها زبانيته ليجمع لنفسه ولسطانه المال بأى طريق ، ومماليك مجلوبون من أقصى الأرض يقتتلون مع بعضهم البعض ويتفانون فى سبيل إدراك السلطة الغشوم ، وأقباط آلت إليهم شئون الحسبة ، يخضعون لكل من تهيأت لهم أسباب القوة ، ومشايخ يتحدث الكثير منهم باسم الدين ، لكن كان منهم من يسايرون نوازع الجشع ويشتركون فى الالتزام وتضوى أجسامهم بأموال الأوقاف التى يلتهمونها حراماً ، ورؤساء من البدو كانوا دائماً خصوماً لكل من سكن الحضر ، وفى هذا المناخ الذى لايدانيه فى سوئه الا حالة الدول الرومانية فى القرنين الثانى والأول — قبل الميلاد — ظهر محمد على ليضم سلطة مركزية تجمع فى إطار واحد كل هذه القوى المتصارعة ، وتعمر هذا الخراب الذى عبر عنه الجبرتى بحق حين قال فى بعض هذه الإحن التى عصفت بقصر من قصور المماليك ، بعد أن كان قد أصلحه صاحبه وزينه وهكذا فإن العاقل من لا يصلح الخراب .

وهذه الكلمة من كلمات الجبرتى — كما أسلفنا — هى المفتاح الذى اتخذه شفيق غربال ليصف المناخ الذى ران على مصر فى السنوات الخمس التى سبقت قيام محمد على ، والذى أظل مصر فى السنوات التى تلت قيام محمد على ، وهذه الحالة نفسها هى التى حاول الفرنسيون أن يعالجوها فى الفترة القصيرة التى قضوها فى مصر وهى التى حملت محمد على على القيام بخطة العمران أو العمارية كما كانوا يسمونها ، وأهم مايميز سلوكه فى ذلك ، هو أنه كان لا يستطيع أن يحتمل الخراب أو الصائر إلى الخراب فهو معمر تحرك أمام هذا التحدى الذى وجده فى أرض مصر حتى تصبح مصر — كما كانت دائماً — مهداً للحضارة .

وشفيق غربال ، وعبد الرحمن الرافعى ، يشتركان فى هذا التقدير ، فمثل هذا يذكره عبدالرحمن الرافعى فى صدر الفصل الثالث عشر من عصر محمد على (ص ٥٣٩) ، وعنوان الفصل لأعمال العمران .

اتجه محمد على — فى نظر شفيق غربال — اتجاهاً ديناميكياً نحو حالة السكون والجمود والركود والكسل التى رأى عليها مصر . والواقع أن أكبر ما يميز محمد على — عند شفيق غربال — هو أنه كان دائماً فى حركة وأنه لم يعرف السكون حينما كان ينبغى له أن يسكن . فهذه الحركية التى امتاز بها هى التى دعته لحركة التعمير ، وهى التى دعته لحروبه المختلفة ، وهى التى أملت عليه سياسته الخارجية — ولو أنه عرف السكون فى سياسته الخارجية — بعد سنة ١٨٤٠ — لا نقلب تاريخ مصر ، غير الذى كان . هنا إذن نرى محمد على وهو يريد التعمير لافى المنشآت المادية التى أشاد بها الرافعى فحسب ، بل فى العلم والفن والإدارة ، وغير ذلك مما يميز الحضارة الحديثة ، بل لقد كان متحركا معمراً ، لأنه وجد ضرورة ذلك فى بعض ما ورثته مصر من رسالة الإسلام ، ويقول شفيق غربال فى ذلك (ص ٧٣) قبل محمد على الأخذ بفكرة الحركة لاعلى أن رسالة الإسلام ، قد قضيت

بل تحقيقاً لقانون قديم من قوانين تطور الأمة الاسلامية ، وهو وجوب بعث حافز من دعوة أو عصبية يخرج الأمة من طور سكون إلى طور حركة ، وقد يكون مصدر الحافز داخلياً ، وقد يكون خارجياً ، ولكن أثره دائماً أشبه ما يكون بأثر الخميرة فى العجينة تكسبها سراً من أسرار الحركة .

* * *

ولنقف وقفة متدبرة عند هذه الكلمات ، لأنها على بساطة التشبيه فيها تحمل فى أطوائها مذهباً بأسره ، هو الذى يفلسف به شفيق غبريال تصرفات محمد على فى خلق هذا العمران . ولقد كان محمد على يبعث هذه الأمة التى سكنت هذا الجزء من وادى النيل . كان يؤمن يبعث « عصبية » خاصة تحفز المجتمع إلى التقدم . ولكى يبلغ هذا الهدف السامى ، فقد اعتمد على ثلاث رددها شفيق غربال فى كتابه هى : الحديد والعلم والمال ، وتختلف هذه عن الإصلاحات التى بدأ بها معاصره السلطان محمود فى تركيا حين اعتمد على هذه القوة العسكرية فقط ، ولكن محمد على فى اعتماده على تلك الأسس الثلاثة ، حاول أن ينتخب صفوة من المعاونين يؤلف منهم تلك الفئة التى كانت تدب عبقريتها فى جسم مصر وروحها كما تدب الخميرة فى العجينة . كانت هذه الصفوة هى الطبقة الفنية المثقفة التى وردت العلم فى أوربا لا لتتعلم فحسب ، ولكن لتعود إلى مصر كيما تطبق العلم على العمل ، وكيما ترقى الزراعة وتخلق الصناعة ، وتخدم الجيش وتبنى الأسطول .

ولأجل أن ندرك فلسفة الصفوة هذه ، ينبغى أن نبحث فى مواطن أخرى مما كتبه شفيق غربال ، فهذه الصفوة هى التى كونت الأرستقراطية العلمية التى آلت إليها فيما بعد القوة السياسية ، ولكنها بدأت فى الثلث الأول من القرن التاسع عشر ولم ينتصف القرن حتى كان منها زهاء ٣١٩ * مبعوثا الأغلبية الساحقة منهم

(*) تقدير عبد الرحمن الرافعى .

درست العلم التطبيقي والفن التطبيقي أو ما نسميه الآن التكنولوجيا (وعدد قليل من الأفراد بينهم درس الآداب أو القانون) . ولم يأت اتقانهم الفرنسية أو الإنجليزية ، إلا عن طريق هذا العلم التطبيقي . نقول إن شفيق غربال كان متأثراً بآراء بعض المؤرخين والمفكرين من الإنجليز أو الفرنسيين ، حين فلسف موقف محمد على فى خلق هذه الأرستقراطية ، والجمهرة من هؤلاء على أنه لا يمكن النهوض بمجتمع إلا إذا وجدت فيه فئة قليلة من قادة الفكر هم الذين يرتادون الآفاق التى حجبها الجهل عن العامة . وحين يعالج « أولدس هكسلى » تطور الحضارة ، يذكر أنه ينبغى للتقدم أن تكون هناك تلك الفئة من قادة الفكر الذين يتمتعون بثلاث التفرغ أولا ، والأمن ثانياً ، والحرية ثالثاً ، بل إن شفيق غربال وقع تحت تأثير مباشر لأستاذه « أرنولد توينبى » حين ذهب إلى أن الحضارة المصرية القديمة نفسها قامت على كواهل (أقلية خلاقة) * من الفنيين والمفكرين الذين سيطروا على اقتصاديات البلاد وقابلوا التحديات التى واجهتهم بها الطبيعة . فلولا هؤلاء ما استطاعت مصر فى تاريخها الطويل ، أن تبنى حضارتها . ولولا أمثال هؤلاء — عند شفيق غربال — ما استطاعت معه أن تخرج إلى العصر الحديث ، وهى أمة تقوم أساساً على الحديد والعلم والمال » .

ثم هل كان محمد على يدرك ما هو بصدده من حيث خلق هذه الحضارة .. ؟ . لقد أكثر شفيق غربال من الاقتباس مما تحدث به محمد على إلى معاونيه ، وكانت كل أحاديث محمد على تنم على أنه مدرك لموقفه كل الإدراك . كان هو الذى يخطط ، وكان يستعين فى ذلك بعصبة من الفرنسيين . ويوازن شفيق غربال بين موقف محمد على ، وموقف الفرنسيين من قبله فى خطة الإصلاح ، فينتهى إلى أن محمد على قد نفذ أكثر ما كان الفرنسيون يستطيعون أن ينفذوه لو امتد حكمهم مصر

(*) Creative Minority

بضع سنين ، ولكن لم يتح للحملة الفرنسية أن تنفذ منهاجها الذى وضعه نابليون وأصحابه ، وأتيح لمحمد على أن يخرج هذا المنهاج إلى عالم الشهادة ، ولعله من العسير أن نجد « تخميناً » تاريخيا أدق من هذه الموازنة التىعقدها شفيق غربال ، فهى تصور حسب ما قال ، « مما كتبه بونابرت وغيره عن نواياهم ، ومما شرعوا فى تحقيقه فعلا ، وبما رأيناه فى طرق الحكم الفرنسى فى غير مصر من الأقطار الإسلامية» .

***

نفذ محمد على هذه الخطة باصطناع حكومة مركزية لم تكن برلمانية ولا ديمقراطية ، فما كان يستطيع أن يكون ديمقراطيا ، ويذكر شفيق غربال أن مثل أنظمة الحكومة الاقتصادية مما أعجب به اتباع « سان سيمون » الاشتراكى وأولهم الأب « أنفانتان » الذى زار مصر على رأس بعثة تنظر فى أمر وصل البحرين وحفر قناة السويس ، ولبث هو وأصحابه بضع سنين يعاونون الحاكم فى مشروعاته . كذلك يذكر شفيق غربال أن « جيريمى بنتام » كان من المعجبين بحكومة محمد على ، وهو صاحب مذهب المنفعة الذى يقضى بأن تعمل الحكومة على أن يصيب أكثر الخير أكثر الناس . وهنا لا يستطيع شفيق غربال أن يبرر أوتوقراطيةمحمدعلىإلا بأن يثبت أن دوافع محمد على كانت كلها أخلاقية . وبالغ مبالغة ظاهرة فى وصفسماحته وتعاطفه مع هذه الأرستقراطية العثمانية التى نماها ، بل بالغ مبالغة أخرى فى وصفعطفه على بعض صغار الناس ، ورأى أن السماحة كانت من شيمه وضرب مثلا أنه نقل إليه أن حفيده عباس باشا قتل فلاحا فأرسل إليه كتابا يؤنبه فيه ويحذره من عدم العودة إلى مثل هذا العمل .. !

إنما هى المحنة الفكرية التى يتعرض لها المؤرخون وبخاصة الذين يكرسون بعض جهدهم لكتابة سير الأبطال ، وقد تعرض لهذه المحنة شفيق غربال ، فلا

شك أن كان لمحمد على هدف واضح يعيه ويدركه ويعمل له وهو التعمير ، ولكن لا شك أيضاً أن فرض الضرائب والسخرة والاحتكار والعامل الشخصى في القضاء والإدارة ، وقصر المناصب العليا على الاستقراطية العثمانية . . لا شك أن كل ذلك يوضح الجانب السيء من عصر محمد على .

ولا شك أن الشيخ محمد عبده كان متأثراً بذلك حينما كتب مقاله عن محمد على — وقد بدأ شفيق غربال كتابه « محمد على الكبير » بالرد على الشيخ محمد عبده . ولكن لا شك أيضاً أن شفيق غربال كان يغتفر لمحمد على هذه السيئات ، لأنه كان يرى أنه لا بد من تضحية جيل أو جيلين فى سبيل الهدف الأسمى فى بناء حكومة معمرة في إقليم مصر ، بل كان يرى أن تشمل هذه الحكومة المعمرة « دار الإسلام » بأسرها . وشفيق غربال يبرر ذلك بالموازنة بين العامل المصرى المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وبين زميله العامل الإنجليزى والفرنسى في انجلترا وفرنسا ، ويكاد يثبت أن المصرى كان أحسن حالا فى هذا العصر ، وهو يبرر عدم ترقية المصريين إلى رتب أعلى فى الجيش ، لأن سراة المصريين لم يقبلوا على الدراسات العسكرية ولا التحقوا بمدارسها ، ولم يكن من سمات ذلك العصر ، أن يرقى إلى الرتب العسكرية العليا جنود من تحت السلاح ، فتلك إذن هى المحنة العقلية التى يتعرض لها شفيق غربال فى أحكامه على تصرفات محمد على ، وهى هى نفس المحنة التى تعرض لها المؤرخون في أحكامهم على ملوك عصر النهضة الذين مكنوا لأنفسهم حتى يصلحوا الممالك التى أمروا عليها ، ثم أتى بعد ذلك حين من الدهر استروحت الأمم فيه ريح الحرية والديمقراطية ، فتخلصت بعد جهاد عنيف من استبداد هؤلاء الملوك أو سلطان ذراريهم .

وبعد كل الذى قيل عن هذه المحنة ، نرى لزاماً علينا أن نرجع ألى ماذهب إليه « ارنولد توينبى » وفصله فى موسوعته عن سجل تاريخ الحضارة ، فقد تتبع

ماسماه «الأقليات الخلاقة» فوجد أنها تتحول دائماً إلى أوليجاركية مستبدة ، بل هو يقول إن هـذه الأقليات هى التى سلبت جهود العامة كما نسلب نحن الشهد الذى تصنعه النحل فى خلاياها ، وأن هذه الأقليات الأرستقراطية لم تتح لطبقة البروليتاريا أن تتطور إلا في عسر — أليس هذا رداً على ما ذهب إليه توينبى نفسه من فضل الأقليات الخلاقة في بناء الحضارة ؟ ، ثم أليس هذا هو الذى حدث فى مصر من حيث خلق ارستقراطية غنية لم تعترف بحقوق العامة اعترافاً جدياً إلا فى منتصف القرن العشرين ، أى بعد وفاة محمد على بأكثر من قرن من الزمان .

* * *

واتجاه آخر فى حياة محمد على نظر إليه شفيق غربال نظرة أخرى : إن محمد على عنده قائد عثمانى مسلم ، وعلى الرغم من تسامحه الدينى ، فقـد كان يؤمن بأن الامبراطورية العثمانية هى القوة الرادعة التى حفظت الإسلام بضعة قرون ، ونافحت عنه أمام غزوات الفرنجة . كان يرى أن هناك «دار الإسلام» ، وأن «دار الإسلام» هذه تتطلب الإصلاح العاجل الشامل ، وكان كقائد عثمانى يتجه اتجاهاً واضحاً ليعين الخليفة العثمانى على إصلاح «دار الإسلام» وعلى الاحتفاظ بها قوية سليمة مصونة ، وقد ظل على إيمانه هذا حتى فقد الثقة بالسلطان بعد صلح كوتاهية سنة ١٨٣٣ ، وعند ذلك اتجه إلى الأنفصال عن الدولة العثمانية ، وأصبحت خطته أن يعنى بما كان يسمى « عربستان » أو مانسميه نحن « دار العروبة » .

إذن فهذا تفسير آخر لحركات محمد على أو لديناميكيته فى المجال الخارجى . لم تكن الحملة الوهابية التى اشترك فيها بنفسه ، إلا لبلوغ الهـدف الأسمى الذى وضعه نصب عينيه ، ولم تـكن غـزواته فى سواحل البحر الأحمر ، والسودان ، إلا معونة للامبراطورية العثمانية التى كان يخشى عليها من التداعى ، ولم يكن موقفه فى نفارين سنة ١٨٢٧ وتضحيته بأسطوله ، إلا جزءا من هـذه الخطة ، حتى إذا أوجس أن

رجالا من العثمانيين يريدون به الشر ، وأن السلطان نفسه يدبر له المهالك ، اجتاحت جيوشه فلسطين ، ولبنان ، وسوريا ، ووصل إلى « قونة » في ديسمبر ١٨٣٣ . وهنا قامت في نفسه الفكرة التي انطوت علي تأسيس « عربستان » . إن الإمبراطورية العثمانية تتفتت ، والدول الأوربية تقوم بحركة من التناهب في سرها وعلنها ، وعندما اصطدم محمد على بهذه القوى الأوربية المتناهبة ، اطمأن إلى فكرة « عربستان » ، وأداه ذلك إلى محاولة الاحتفاظ بمصر وما حولها من بلاد العروبة . لكن الدول الأوربية تخلد إلى رأى في تقسيم ما سمى بعد ذلك ببضع سنوات امبراطورية الرجل المريض ، وحينئذ يطوف بخلد محمد على شبح الزوال ، وفي كل تصرفاته — بعد سنة ١٨٣٣ — يريد أن يحتفظ بدار العروبة من ناحية ، ويدفع شبح الزوال من ناحية أخرى ، وهذا تفسير لسياسته وحروبه واتجاهاته في السنوات الخمس عشرة التي عاشها بعد سنة ١٨٣٣ .

* * *

هل كانت أحكام شفيق غربال صائبة فيما أورده عن محمد على ؟ . لا شك أن « عبادة البطل » التي ذكرناها في صدر هذا الحديث ، لم تزايل شفيق غربال في كل ما احتواه كتاب « محمد على الكبير » ، ولا شك أن هذا الاتجاه المتفلسف مقنع إلى حد ما إذا نحن أخذنا بوجهة نظر محمد علي نفسه . والذي يذكر له في كل ذلك ، أنه كان رجلا ذا خلق وعسر ، وأنه كان معمراً يعمل للعمران ، وأنه كان سياسياً يدافع عن ملك مصر بأحاديثه وأعماله ، وأنه كان محارباً ، فأنشأ الجيش والأسطول . ويبقى بعد ذلك أنه وقف من مصر موقفاً حضارياً هو الذي يذكر له فتنطوي تحته كل هذه العناصر التي عددناها . إنه الموقف الحضاري الذي خرجت به مصر من عالم العصور الوسطى إلى عالم العصور الحديثة ، هو الذي خرجت به مصر

من عالم الغيبيات والخزعبلات ، إلى عالم العلم الصحيح ، هو الذى خرجت به مصر من عالم الفوضى ، إلى عالم القانون .

ولسنا نعلم إن كان قد خرج هو بمصر من العوالم الأولى إلى العوالم الأخرى ، أم مصر هى التى ألزمته ذلك ؟ . فمحمد على — كحاكم عثمانى — كان يرجو أن يبعث العصبية فى هذه الأقلية الخلاقة ، أو قل فى هذه الأرستقراطية العثمانية التى أعانته ، لكنه لم يجد بداً من أن يكون أداة من أدوات التطور الحضارى . فمصر هى التى حتمت عليه أن يؤوب إلى حضارة الإسلام فيبعثها ، أو إلى إنشاء دار العروبة حين أيس من دولة الخلافة ، ومصر هى التى أتاحت له إمكانيات الزراعة والصناعة والتجارة ، ومصر هى التى ألزمته أن يعنى باللغة العربية فتظل هى لغتها بعد أن بدأ بإدخال التركية ، وهذه الأرستقراطية العثمانية لم تلبث أن أصبحت مصرية ولم تلبث أن احتوتها أمة بأسرها ، ولم تلبث هذه الأمة أن تطورت ، كما تطورت سائر الأمم فطالبت بالحرية والعدالة والشورى والاشتراكية أخيراً .

* * *

(٣) « تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية — الجزء الأول »

لندع سنة ١٩٤٤ حينما نشر كتاب « محمد على » فى سلسلة « أعلام الإسلام » ونتناول كتاباً آخر ألفه شفيق غربال وانتهى من كتابته فى مايو سنة ١٩٥٢ ، أى قبل ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ بشهرين اثنين . إسم الكتاب « تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية » ، وقد نشر الجزء الأول منه فى التاريخ سابق الذكر ولم ينشر بعد الجزء الثانى ، ولا نظن أنه تهيأ للطبع . والجزء الذى بين أيدينا فى العلاقات المصرية البريطانية من تاريخ الاحتلال إلى عقد

المعاهدة التي سميت « معاهدة التحالف » أي من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٩٣٦ ، فهذا الكتاب صورة أخرى من فن التاريخ الذي حاولنا تفصيله فيما أسلفنا ، ونلمس فيه نفس السمات والظروف التي شهدناها قبل ذلك بأكثر من ربع قرن في كتابه الأول : « بدايات المسألة المصرية وقيام محمد علي » .

وفي مقدمة هذا الكتاب ، يذكر شفيق غربال فقرات نرى فيها دلالة على تحول ذي بال في منهجه التاريخي ، فعلى الرغم من قلة عدد السنين التي مضت بين كتابه عن محمد علي ، وبين هذا البحث ، فإننا نستطيع أن نتأثر في مقدمته هذه العلاقة بين شخصية المؤرخ وبين الحوادث التي يؤرخ لها . يقول شفيق غربال في مقدمته :

« في هذه الفصول محاولة لتركيب صورة واضحة من الحوادث والوقائع ، والسياسات والخطط ، والبواعث والأغراض ، والأماني والأحلام والشهوات التي توالت على مصر والتي يتكون منها تاريخ العلاقات بين مصر وانجلترا إلى هذه الأيام ، وقد تتابعت هـــذه الأشياء المختلفة علينا نحن المصريين ، منفصلة أو متصلة ، وحكمنا عليها بما شئنا ، أو أريد لنا . واليوم وقد بلغنا نقطة تحول فاصلة ووصلنا إلى مرحلة حاسمة في المصير ، وجدت من الخير أن نقف عند هذه المرحلة موقف التفكير المنظم » ..

« وهذا التفكير المنظم لا بد أن يقوم على أساس . وهذا الأساس هو ما سميته الصورة المركبة من المتفرقات التي أشرنا إليها . ولهذا العمل خطورته ومسئوليته وصعوباته ... وله أيضاً متعته ، ولكنه جد لازم ، وهو واجب وطني ينبغي على كل مواطن أن يحاول أداءه لنفسه بالقدر الذي يستطيع » .

ويمضى فى المقدمة ، ويكرر مرة أخرى اتجاهه فيقول :

« . . . . وأنبه القارىء من جديد إلى أنى كتبت هـذه الفصول فى الأصل لنفسى ، وأنى كتبتها محاولة منى لتنظيم تفكيرى ، وبناء أحكامى على الفهم الصحيح ، ولم أكتبها للعمل السياسى بالمعنى الشائع فهذا ما لا أشارك فيه . فكتابتى كتابة مواطن مصرى ، يريد أن يكون مواطناً خيراً مما هو ، أقدر على الحكم والتميز . وحيث أتيحت لى فرصة نشر هـذه الفصول رحبت بذلك أملا منى فى أن يجد غيرى من المصريين ما وجدت من تنظيم المعلومات وتهذيب الفكر وجعل المتفرقات كلا متصل العناصر » .

فى هذه المقدمة — كما أسلفت — نستطيع أن نرى شخصية شفيق غربال المواطن والوطنى فى وقت معاً . هنا نستطيع أن نلمح فن التاريخ وهو يمضى قدماً فى بحث النصوص والتقارير والوثائق والكتب والمذكرات السياسية ، ومحاضر الجلسات ، والكتب البيضاء والخضراء ، ومناقشات المجالس النيابية ، ولكن هنا أيضاً نرى شخصية مفكرة متلهفة تريد أن تلم بتفاصيل شتى وأهواء شتى ونزوات شتى وأحلام شتى ، حتى تعرضها فى سلك منتظم وفى سجل متسق يوائم بعضه بعضاً . إنه وطنى يريد أهل بلده أن يدركوا الحقائق من العلاقات التى كانت بيننا وبين إنجلترا لمدة تنقص قليلا عن نصف قرن . إنه كلام يذكر الإنسان بكلام المصلحين الأول الذين قامت عليهم الثقافة المصرية فى أواخر القرن التاسع عشر : أنه فى أسلوبه وروحه يذكر القارىء بكلام لقاسم أمين .

والحق أنه لا بد للمؤرخ المتفنن أن تنشأ فيـه شخصية عامة فى أخريات أيامه ، قد تبدو قليلا قليلا فى باكورة أعمـاله ، لكنه لا بد أن تنتهى

جه إلى أحكام عامة وإلى فلسفة أو نظام يجمع الأشتات التى تمرس بها أو التجارب التى عاناها . لقد أسلفنا فقلنا إنه كان دائماً يصور شخصياته التاريخية قبل أن يقحمها فى الحوادث التى كان يرويها أو يبحثها — وهذا هو الذى حدث بإشارات لماحة ، وتعقيبات نفاذة فى حكمه على المفاوضين والوزراء ورؤساء الوزارات والأحزاب من جانبي إنجلترا ومصر طوال السنوات الثلاثين التى عالج المفاوضات فيها ، ولنضرب لذلك مثلا تصويره للورد « كرومر » فهو يقول :

« وكرومى فى أيامه الأخيرة عنيف ومفصح . كان عنيفاً فى حادثة دنشواى ، ظهر فيها الاحتلال لكل مصرى على حقيقته الأصلية ، وآمن من لم يكن يصدق بكلام مصطفى كامل : ألا يضرنكم من المحتلين لين الملمس ، فقد تغلب عليهم طبيعة زبانية الجحيم . ثم أفصح — أى كرومر — عن اعتقاده فى أبدية الاحتلال ، أو على الأقل فى المركز الخاص لإنجلترا فى مصر ، وأفصح عن اعتقاده بقصور المصريين دهراً طويلا إن لم يكن أبدياً عن بلوغ مؤهلات الحكم النيابى ، وأفصح عن اعتقاده بأن دين المصريين — الإسلام — يحول دون المشاركة فى حياة الحضارة الإنسانية ، وأفصح حين عبر عن اعتقاده بأن القومية الوحيدة التى يجوز لمصر أن تنالها هى تلك القومية التى يشارك المصريين فيها جميع الطوائف التى تقطن وادى النيل » .

« ترى ما الذى انتهى به إلى كل هذا ؟ أهو ذلك المس الذى يصيب الرجل الذى يزهى بنفسه فتنقلب الأناة رعونة وطيشاً ثم يلقى جزاءه ؟ أهو ذلك الخبل الذى تصوره المأساة اليونانية يتردى فيه ابن الإنسان حينما يضع نفسه فى مقام الآلهة؟، ومهما يكن فقد خفق قلب مصر — كما قال قاسم أمين — لدنشواى لأول مرة » (صفحتى ٣١ و ٣٢) .

* * *

هذه كلمات المؤرخ المتفنن حينما ينتهي به الأمر إلى فلسفة خاصة تنظم تفكيره بعد أن يكون قد اطلع على ما أطلع عليه شفيق غربال من كتب ومؤلفات وفلسفات أخرى للتاريخ ، إنها كلمات الرجل الإنسان فى المؤرخ قبل أن تكون كلمات الوطني المصرى . فهي نفثة تعبر عن الحكم السليم على انجليزي طوحت به مطامع بلاده فى مصر فحكمها أكثر من ربع قرن من غير أن ينبض قلبه نبضة واحدة بحب المصريين أو العطف عليهم . وهنا نأتى مرة ثانية إلى النظرة الأخرى فى التاريخ التى كان يمتاز بها شفيق غربال . هنا نجاوز هذا الذى حاولنا تفسيره من حيث النظرة المحايدة ، والنزاهة المطلقة فى الأحكام ، والترفع عن العاطفة أو الموجدة ، لا لأن شفيق غربال قد تردى فى كل هذه المسالك ، ولكن لأنه من مبدأ الأمر كان يحاول أن يجمع شتات أفكاره فيحيلها نظاما تاريخيا خاصا . وهذا ما أطلقنا عليه فى مستهل حديثنا الثقافة التاريخية العامة ، وهى فى نظرنا تكون الشطر الثانى من المنهج التاريخى . وقد كان صادقا فى التعبير عن هذه النظرة الأخرى التى قلنا أنها كانت تسرى فى تفكيره من أول الأمر والتى ظهرت واضحة عند نضج ملكته التاريخية فى أخريات أيامه .

* * *

هذا الكتاب الجليل الذى يعد نتيجة لدراسات وقراءات لا حد لها ، يعتبر فى نظرنا نموذجا آخر للتحقيق التاريخى والسياسى . فقد ظهر على مسرح الأحداث فى الثلاثين سنة التى مرت بين سنة ١٩١٧ وسنة ١٩٣٩ فئة من السياسيين المصريين اختلفوا فيما بينهم ، وكانت بينهم إحن وجزازات — وهم أحياء ، لكنهم فى نظر المؤلف كانوا يتصفون إلى جانب أحقادهم بالجرأة والشجاعة وحرية الرأى . يقول

شفيق غربال فى مقدمة الكتاب (ص ٤) عن الخصومات التى كانت تتأجج فى قلوبهم عندما يفسر ما أثارته المفاوضات من خصومة « . . . إن نظرة المؤلف غير نظرة الرجل الذى يعيش فى غمرة الأحداث وفى حمى الكفاح ، وخصومنا الإنجليز اشتهروا بالخبث والدهاء ، فلابد من تحليل الألفاظ لفظا لفظا والحروف حرفا حرفا ، فقد يكون اللفظ دسيسة ، وقد يكون فى الحرف لغم . وهذا إلى اقتران أدوار المفاوضات بأزمات فى الحياة البرلمانية اختلفت فى أثنائها وجهات النظر ، وقد يكون لكل وجهة منها ما يبررها أو يفسرها ، ولكنها أدت جميعا إلى خلق جوسياسى مضطرب من آثاره المبالغة فى سوء الظن » .

وقد حاول شفيق غربال أن يجرى على هؤلاء الرجال الذين قاموا بالمفاوضات حكما يكاد يشبه الإعجاب والتقدير ، على الرغم من أنه فى صلب الكتاب يتردد فى أن يشير إلى النقائص الفتاكة التى كانت تشوب تصرفاتهم — إنه يذكر سعدزغلول ، وحسين رشدى ، وعدلى يكن ، وعبد الخالق ثروت ، وإسماعيل صدقى ، ومحمد محمود ، وأحمد ماهر ، ومحمود فهمى النقراشى ، وعبدالعزيز فهمى ، ومصطفى النحاس ، وعنده أن هؤلاء الرجال وغيرهم كانوا يؤلفون ظاهرة سياسية هى نفسها نتيجة لعصر المفاوضات . كانوا نتيجة للحياة المصرية التى زخرت بها مصر ، منذ نهضتها وكفاحها مع المستعمرين ، إنهم على حد قوله : « من طراز لم تعرفه مصر قبل حقبة المفاوضات ، فإن هذه الحقبة خلقت رجال السياسة ، وخلقت الأمة المشتغلة بالسياسة ، وقد عرفت مصر السياسة فى كل العصور ، ولكنها عرفتها شعورا ولم تعرفها عملا . وربما كان ذلك الأثر أهم ما خلقته فيها حقبة المفاضات . فقد تجمع فى مصر من ذخيرة العمل السياسى ما تجمع لدى غيرها من الأمم ما يماثله فى قرن أو قرون من الزمان . ويحمل التجمع الغزير فى الزمن القصير ما يحمل النبات

ينمو فى ظروف مصطنعة من العلامات والخصائص . ولم يكن لمصر حيلة فيما حصل ، وها هى ذى قد كسبت الاهتمام بالمسائل العامة ، فعليها أن تكتسب تنظيم الاشتغال بالسياسة والعناية بالتربية الوطنية » .

ويجد شفيق غربال عاملا واحدا ، هو الذى ألف بين أهداف هؤلاء على الرغم من تباين نزعاتهم وعنف اتهامهم بعضهم البعض : ذلك العامل هو عامل الثورة ضد المستعمرين . والثورة عنده لا تعتمد على سلب الأقوات ولا تعسف الانجليز ولا الترقى فى سلم الوظائف . كانت الثورة التى قامت فى سنة ١٩١٩ قائمة على «الكرامة» : « فإن الاحتلال البريطانى لم يبق كرامة لهذه الأمة ، ولم يعترف لها بشرف ، ولم يقم لها بإصلاح فى الزراعة ولا الصناعة ولا التعليم ، بل إنه دائما يحاول أن يتدخل سياسيا فينتفع من ضعف السلطنة العثمانية إن شاء ، وينتفع بحقوق هذه السلطنة إذا أراد ، ويستغل الامتيازات الأجنبية حين يرى ذلك من مصلحته، ويناصر المجددين أو يخذلهم حسب مصالح الامبراطورية » . فالثورة عنده « انفجار غضب كرامة ، قصتها قصة البطولة التى لا تزن ولا تحسب ، وجمالها هو جمال التضحية الصافية النقية ، يقدم عليها غير هياب الصبى والصبية ، والرجل والمرأة ، نسوا جميعا كل فوارق الطائفية والطبقات الاجتماعية ، ولم يعرفوا إلا مصر ، ولم يهتموا إلا بحرية مصر واستقلال مصر» .

« والثورة لا تبتدئ بيوم معين من أيام الزمان ، ولا تنتهى بيوم معين من حساب السنين ، بل الأقرب للحق أن نقول إن مصر لا تزال فى عصر الثورة . فالثورة مطالبة بحياة الأمة الناهضة ، وإن تحقق شئ من عناصر الحياة الطيبة تولدت عن ذلك التحقيق حاجات جديدة ، وهكذا » (ص ٤٩) .

فإذا نحن مضينا فى قراءة الكتاب ، استطعنا أن ندرك مقدار الجهد الذى قام به كل فرد من الجانب المصرى فى سبيل الدفاع عن قضية بلاده . فعبد الخالق ثروت ، مثلا ، فى نظر شفيق غربال من كبار السياسة الذين خلد اسمهم التاريخ ، فهو يقول عنه (١٧٢) فى مفاوضات سنة ١٩٢٨ : « إيمان ثروت إذن هو إيمان ذلك النفر القليل من الرجال الذين حذقوا فن الدبلوماسية ، واتخذوا منها إدارة لحل العقد وتسوية المشكلات . وإنا لنقرن اسمه بأساتذة هذا الفن : « تاليران » و « مترنخ » وغيرهما ، وهؤلاء — مع الأسف — بقايا القرن الثامن عشر ! وإذا نحن مضينا أيضا فى دراسة الكتاب ، رأينا المفاوض الانجليزى رجلا تخرج فى مدرسة الامبراطورية الهندية متشبعا بحق هذه الامبراطورية فى الوجود والتوسع والعدوان ، فلم يكن « كرومر » ولا « ملنر » ولا « كيرزون » ولا « أوستن تشمبرلين » ولا « جورج لويد » إلا بعض من خدموا فى الهند ، ولم يكن بينهم فارق كبير فيما أعطوا أو أخذوا فى المفاوضات التى توالت خلال الثلاثين سنة التى قامت بيننا وبينهم والتى انتهت فى ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ . وهو يصف كل واحد من هؤلاء المفاوضين الإنجليز بما يغنى عن دراسات بأكملها ، وادرس معنى هذا الوصف للورد « لويد » : « وقد كشف لويد عن سياسته كشفا تاما فى كتاب مفصل أطلق عليه اسم « مصر منذ أيام كرومر » ، والرجل من غلاة الاستعماريين ، وهو فوق ذلك طموح ، يعمل على أن يضعه التاريخ فى صف « بناة الإمبراطورية » الكبار من أمثال « كرومر » و « ملنر » ومن إليهما ، دون أن يكون له ما لهؤلاء من الشخصية والصفات العقلية ، فاعتمد — ليبلغ مبلغ المتصرف فى مصر — على الخيلاء وأبهة المظهر ، وصفاقة الوجه — كما اعتمد ليبلغ ذلك المبلغ على الانقسام بين الزعماء المصريين : ونقولها والألم يحز فى النفس » . (ص ١٦٦) .

ولسنا نرى نحن أبلغ من هذه الكلمات القليلة في وصف ذلك اللورد !

* * *

كتب هذا الكتاب — كما قدمنا — فى مايو سنة ١٩٥٢ ، وانتهى فى سرد وقائع المفاوضات حتى أغسطس ١٩٣٦ . وبقى بعد ذلك أن نهيب بتلاميذ شفيق غربال أن يكملوا القصة حتى نهاية مفاوضاتنا مع بريطانيا ، واستكمال استقلالنا بعد ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ . إن أمام الباحثين ميداناً واسعاً من البحث فى هذا المجال، أمامنا ما كان لدى شفيق غربال من الكتب التى استند إليها ، ومن كتب أخرى ظهرت بعد وفاته،وأمامنا الوثائق البريطانية والمصرية، وأمامنا مذكرات المفاوضين من الجانبين . وليس من شك فى أنه سيقوم مؤرخ معاصر ليتم هذه القصة . فليته يتبع المنهج الذى اختطه لنفسه شفيق غربال حتى ينسق المعلومات ويظهر بواطن الأمور ويجرى أحكامه فى غير ميل ولا عوج ولا مبالغة .

إن الذى يميز شفيق غربال فى منهجه هذا وفي أحكامه ، أنها تستند جميعاً على المعيار الخلق فى أسمى معانيه . قد يكون قد تريث قليلا فى إصدار بعض أحكامه على سعد زغلول فى بعض المواطن،وعلى محمد محمود ، وإسماعيل صدقى فى مواطن أخرى، لكن لمحاته الخلقية وإشاراته وعتبه تنم عن أصالة فى الرأى ، وعن أدب فى حكاية التاريخ . التفسير الخلق لموقف الرجال — إذن — هو ملاك الأحكام التى تسرى فى كتابه عن المفاوضات المصرية — وهذا التفسير الخلق يرتفع في أحيان من مستوى الأفراد إلى مستوى الجماعة القوميـــة ، وهذا هو الذى سماه شفيق غربال فى أول الأمر « المواطنة » الصحيحة ، وقد كتب كتابه هذا كمواطن ، إلى جانب كونه مؤرخاً .

* * *

(٤) «الآراء والحركات فى التاريخ الإسلامى»

Ideas & Movements in Islamic History

كان شفيق غربال يستقرىء الحضارات ، كما كان يستقرىء النصوص والوثائق . والحضارة ذات خمس قواعد هى : الأدب ، والقانون ، والفن ، والدين ، والعلم . وقد كان يتوفر على دراسة كل هذه المجالات ، فأخذ بقسط كبير منها جميعاً ، وجمع بين كل هذه النواحى حتى يتمكن من كتابة التاريخ ، وحتى يركب لنفسه أولا هذا النظام الفكرى الذى تحدث عنه ، وحتى يستطيع أن ينقل هذه الفلسفة إلى تلاميذه أولا ، ثم إلى المواطنين الذين أفادوا من علمه سواء فى مصر أو فى خارج مصر .

ويظهر هذا الاتجاه الفلسفى الجامع ظهوراً واضحاً فى معالجته تاريخ الحضارة الإسلامية . لقد حاضر عن هذه الحضارة — منذ تدريسه فى مدرسة المعلمين العليا سنة ١٩٢٥ ، وكتب كثيراً عن الإسلام والمسلمين ، ولكن نكتفى فى هذا البحث بأن نرجع إلى مقال قيم اشترك به فى كتاب « الإسلام الصراط المستقيم » قام بالإشراف على تحريره ، ونشره الأستاذ « كنيث مورجان » بجامعة هارفارد ، وظهر باللغة الإنجليزية فى سنة ١٩٥٨ ، والمقال يؤلف الفصل الثانى بعنوان « الآراء والحركات فى التاريخ الإسلامى » واشترك فى تأليف الكتاب — غير الأستاذ شفيق غربال — عدد من أهل الفكر ، من مصر ، وإيران ، وفلسطين ، وتركيا ، وباكستان ، والصين ، وأندونيسيا (*) .

(*) تبين لنا أن كتاب « الإسلام الصراط المستقيم » قد ترجم إلى اللغة العربية : ترجمة « دقيقة » قيمة الأستاذ محمود عبد الله يعقوب ، وراجع الترجمة الأستاذ نور الدين الواعظ وكلاهما من العراق . ولكنا فى بحثنا هذا نرجع إلى ترجمة قمنا بها لنفس المقال قبل أن يعده الأستاذ مورجان للنشر وقبل أن نطلع على ترجمته فى كتاب « الإسلام الصراط المستقيم » Islam The Straight Path.

كان لابد فى هذا المقال أن يبرز آرائه فى الأمور الحازبة ، والمشكلات العميقة التى ثارت فى تاريخ المسلمين ، وأن يربط هذه بالساعة التى كان يكتب فيها — كان لابد أن يتناول علاقة الحضارة الإسـلامية بغيرها من الحضارات التى ورثتها مثـل الحضارتين الفارسية واليونانية ، وتلك التى كانت السبب فى بعثها مثـل الحضارات السريانية والعبرية . وكان لابد له أن يتعرض للسلطة السياسية فى الإسلام ولأصول الحـكم ومبلغ ذلك من الشورى . وكان لابدأن يتناول الشريعة وأساسها ، وأبواب التفسير والتأويل ، والقياس ، والاستقراء ، والإجماع ، والاجتهاد التى نشأتها . كان لابد له أن يقوم الناحية العقليـة فى حياة المسلمين وما ورثوه فى ذلك عن فلاسفة اليونان ، وبخاصـة إفلاطون وأرسطو ، وأفلوطين ، ثم كان لابد أن يثير بحوثاً بأكملها عن عنصر الإلهام والتصوف فى حياة المسلمين ، وأثر ذلك فى اتجاهات الفلسفة الأوربية ، فى القرنين الحادى عشر ، والثانى عشر الميلاديين . ثم كان لابد أن يدلى برأيه فى أمر التربية عند المسلمين ، ويقوم المهام التى قامت بها مدرسة كالنظامية التى أقامها آل سلجوق ، ثم مبلغ ماكان لها من الأثر فى المسلمين حتى الوقت الذى كان يكتب فيه . كل ذلك كان لابد أن يتناوله كما تناول فئات أخرى من المشكلات ، فلم تـكن بحوثه فى الحضارة الإسلامية مجرد هيكل يلبسه ثوباً سياسياً ، ولـكنها كانت كلها نظريات فلسفية عميقة كان يبسط الـكلام فى كل منها ويربط ماضى المسلمين بحاضرهم .

كان شفيق غربال يتناول كل واحدة من هذه المشكلات بدقة المؤرخ الفنى الذى يستند على أصوله ومراجعه ووقائعه ، وكان يناقشها مع طلبته ، فلم يكن الأمر أمر محاضرة جافة يلقيها على طلبته — وقـد كنت منهم — بل كان يناقش المشكلة من جميع نواحيها فى لغة بسيطة سهلة منسقة . ونعود فنـكرر اتجاهه ، حيث كان يكتب كتابه عن المفاوضات إذ قال : «إنى أكتب ما أكتب محاولة منى لتنظيم تفـكيرى ،

وبناء أحكامى على الفهم الصحيح » ، والفهم الصحيح لهذه المشكلات التى ذكرت عدد امنها ، كان يأتى من بعد المراجعة والحوار، ومن بعد تغليب الرأى الأصوب، والرجوع إلى كثير من المصادر عربية أو غير عربية . فهو كان موضوعيا فى تفكيره، ولكنة كان فى نفس الوقت يصدر عن فلسفة خاصة كونها لنفسه لتنظيم تفكيره كما قال.

وعند شفيق غربال أننا فى دراسة التاريخ الإسلامى ، ينبغى ألا ننساق وراء مصطلحات لم يعرفها المسلمون فى تطورهم ، فإنهم لم يعرفوا الكنيسة والدينوى والعلمانى والاكليركى ؛ ولا الدولة والسياسى والاجتماعى . وكل هذه ومئات غيرها من المصطلحات والتعبيرات : « إما أنها غير موجودة فى العالم الإسلامى ، أو أن مفاهيمها أصبحت تقريبية غير واضحة بالرغم من أن الناس يعلمون أصول هذه الكلمات ومنشأها ... ويكفى أن نقول هنا إن التعبيرين اللذين استعملهما البروفسور « ليبير » فى كتابه « حكومة الإمبراطورية العثمانيه تحت حكم سليمان العظيم » . . . وهما « الهيئة الحاكمة » و « الهيئة الدينية » يكفى أن نقول أن هذين التعبيرين يصفان الواقع ولا يحتاجان إلى أى تساؤل » .

وهنا مفتاح لتقدير السلطة التى تراوحت فى الدول الإسلامية والتى حاول كثير من المؤرخين الأجانب ، أن يلبسوها أثواباً غربية ، أو أن ينساق وراء نظرياتها كثير من المؤرخين المسلمين . وكان أساس بحث شفيق غوبال ، فى رعاية النبى والأمانة التى حملها الخلفاء الراشدون ، وقيام الخلافة ونشأة الدويلات الإسلامية — كان أساس بحثه فى كل ذلك ، أن هذه جميعاً نظم نشأت بحكم عناصر خاصة صادفت جزيرة العرب ، ولقيت ظروفاً عمرانية وحضارية شكلتها لتعمير الأرض وخير العباد. فلا حاجة بنا عنده أن نبحث فى نظريات حديثة ولا أن نلجأ إلى ما كتب عن

البرلمانية ولا الديمقراطية ، ولا العقد الاجتماعى لندرس موضع السلطة فى تاريخ المسلمين ، ثم لا حاجة بنا إلى أن نلتمس نظاماً برلمانياً فى دول الإسلام حتى نبرهن أن الإسلام دين ديمقراطى ، ويكفى أن نعلم أن الشورى أساس مهم من أسس الحكم . ثم لا حاجة بنا إلى أن نخوض مع الأستاذ على عبد الرازق فنتساءل إذا كان النبى قد تمتع بسلطة الحاكم الدنيوى بعد هجرته إلى المدينة ، وفى ضوء هذا الاتجاه الواقعى يقوم شفيق غربال الحكومات التى قامت فى دول الإسلام ، بل فى ضوء هذا الاتجاه نفسه يقوم ظروف الحكم فى البلاد الإسلامية فى الوقت الحاضر :

نقول إن هناك تطورات خاصة امتاز بها تاريخ الإسلام ، لازالت تؤثر فى حياة المسلمين حتى العصر الحاضر . فلا شك أنه كان فى البلاد العربية — إلى عهد قريب — فجوة بين الحكام وبين المحكومين . وقد قامت ثورة مصر فى يوليو سنة ١٩٥٢ مؤذنة بأن الحكام سيصبحون من المصريين أنفسهم ، وبأن الجيش والأمة كلاهما أصبح كلا واحدا ، وأن الحكام من الجيش ومن غير الجيش يعملون تحت راية واحدة . ولنستمع إلى شفيق غربال — حينما يفسر هذه الفرقة بين السلطة العسكريه الحاكمة والأمة المحكومة . فهو بعد أن يبسط الكلام فى القوة العسكرية التى كان يمثلها المماليك ، وبعد أن يشيد بفضل صلاح الدين ، يكتب ما يلى :

« وقد ساعدت الحروب الصليبية أيضا على تثبيت مبدأ الجهاد الدينى بجعلته مسوغا لوجود الدويلات والإمارات الحاكمة . فقد كان ظهور صلاح الدين ، وتحطيمه الدولة الفاطمية ، وإنشاؤه دولة وحدت بين مصر وسوريا ، كل ذلك كان موجها لغرض واحد هو تحرير الإسلام ، ولم يكن يستطيع أي سلطان من

سلاطين المماليك أن يؤيد دعواه فى الحكم بأى مسوغ آخر . وفى هذا نجد السبب الأساسى للسكان الذى يمثله للطبقة غير العسكرية فى المجتمع الإسلامى . فإذا أضفنا إلى ذلك أن العسكرين كانوا يتجمعون من أجناس خاصة لم تكن بعض أحيان فى أرض الإسلام ، وأن غير العسكريين كانوا يكونون الشعوب المسلمة الرئيسية ، وبخاصة في بلاد العرب ، استطعنا أن ندرك فى يسر أن المجتمع الإسلامى قد وصل إلينا وهو مكون من أقلية من سادة الحرب وأغلبية من الرعايا الخاضعين » .

وإذا أنت حاولت أن تفسر ما عانته الأمم الإسلامية — ومنها مصر — من ظلم الولاة والحكام ، وإذا أردت أن تقدر تاريخ المماليك فى القرون الحديثة ، بل إذا أردت أن تفسر جناية الاحتلال البريطانى على مصر ، لم نجد أبلغ من هذا التفسير — وهو أن السلطة العسكرية كانت فى كل هذه العصور فى أيدى فئة من العسكريين أقل ما يقال فيهم أنهم أجانب عن هذه البلاد ، وأن غيرهم من الشعوب كانوا يخضعون لهم خضوعا يكاد يكون أعمى .

فإذا تعرض شفيق غربال للشريعة ومكانتها فى تاريخ المسلمين ، رأى أن « الوازع الدينى » هو الذى دفع بعضا من علماء الحجاز والعراق والشام ومصر إلى رسم صورة مثلى لما يجب أن يكون عليه التشريع فى المجتمع الإسلامى . أبرز هؤلاء أصحاب المذاهب الأربعة : أبو حنيفة فى العراق (٦٩٩ — ٧٦٧م) ، ومالك فى الحجاز (توفى ٨٢٠م) ، والشافعى فى مصر (توفى ٨٢٠ م) ؛ ثم ابن حنبل فى العراق (توفى ٨٥٠ م) . « والشريعة — كما وصفها مؤسسوها وأجيال الفقهاء من بعدهم — تشمل كل قواعد السلوك الإنسانى

كما يمليها التشريع الآلهى ، وتحتوى كل ما يتعلق بحياة الأسرة وبأوجه النشاط السياسى والاجتماعى ، وبالواجبات الدينية وشعائر الدين .

على أن شفيق غربال يدعو إلى الاجتهاد ويذكر أهل العدل . ولعله قد أورد تواريخ وفاة الأئمة الأربعة ليذكر القارىء ، أن آخر الأئمة كان قد توفى منذ أحد عشر قرناً ، وأن الأمم الإسلامية كان يجب أن تتطور فى هذه القرون الطويلة حتى تدرك المثل الأعلى الذى كانت تصوره الشريعة . وهو يقول فى ذلك . « ومن العسير تحديد مكان الشريعة فى تاريخ المجتمع الإسلامى . وإذا أمعنا النظر فى الصور التى بلغت بها ، والطرق التى استخدمها المشرعون ، وفحوى هذه الشريعة ، والمجال الضيق الذى طبقت فيه كقانون عملى ، لوجدنا أن الدور الذى لعبته محدود جدا ، ولكن إذا مانظرنا على أنها مثل أعلى للمسلمين كافة ، يجب أن تسعى المجتمعات الإسلامية المنتشرة فى كل مكان إلى تحقيقه ، أو إذا نظرنا اليها على اختبار أومقياس تقاس به سياسة الدولة وأعمالها ، وجدنا أن هذا الدور عظيم الشأن » .

ومضى شفيق غربال فى الدعوة إلى الاجتهاد ، فيهيب الفقهاء أن يتخذوا الشريعة صنما يعبدونه من دون الله تعالى ، وهو يقول فى ذلك :

« ولكن لايكفى أن نستخدم الشريعة — كما هو حادث فى هذه الأيام — كصيحة يتجمع الناس من حولها فى معارك لاتمت إلى الدين بصلة ، أو أن نضعها على قاعدة تمثال ليحملق فيها المعجبون ، أو نختار منها عفوا مايروقنا ويعجبنا وندع غيره ، بل المطلوب هو الربط بين الشريعة وبين تيارات التشريع العالمى الذى يسود فى أيامنا هذه ، وفى الواقع أن هذا عمل شاق جدا .. » .

ويسرى فى كتابات شفيق غربال عن التاريخ الإسلامى ، والحضارة الإسلامية ، تقدير موضوعى سلم لناحيتى العقل والإلهام فى الثقافة الإسلامية ، فهو يعتبر القرون

الأربعة من الثالث إلى الخامس الهجرى (٧٥٠ — ١٠٥٥ م) : يعتبر هذة القرون عصر نضج المجتمع الإسلامى ، ويعتبر أن العلم فى هذه القرون الطويلة بلغ أوجه ، وأن الحياة العقلية كانت قد سادت الأقطار التى كونت البلاد الاسلاميـــة .« ومن الضرورى أن نتذكر أولا » — كما يقول شفيق غربال —: « أن المجتمع الإسلامى قد جمع لأول مرة عالمين مختلفين : تراث البحر الأبيض المتوسط المتنوع الذى انحدر منذ مئات السنين إلى روما ، واليونان ، والعبرانيين ، والشرق الأدنى القديم ، ثم الحضارات الأصلية لبـــلاد فارس بنظامها المختلف فى الحياة والفـكر والمشاعر ، واتصالاتها المثمرة بالحضارات العظيمة فى الشرق الأقصى . ومن المفيد أن نعلم أيضا إن كان فى المجتمع الإسلامى كنائس وأديرة ، ومعابد لليهود ، ومعابد أخرى تخدم المسيحيين واليهود، وعباد النار وغيرهم، وقد أتيح لهؤلاء ، أن يعيشوا لا كأشباح أو طبقات مكبوتة ، بل كمجتمعات صغيرة من رجال ونساء ، اتبعوا مذاهبهم ومارسوا عقائدهم علانية ، وخاضوا معارك جدلية دفاعا عنها ، واستمروا جادين فى النهوض بتراثهم الدينى والفلسفى والعلمى . وكانوا على اتصال طيلة الوقت بجيرانهم المسلمين ، وأن من مظاهر هذه الصبغة الإسلامية — إذا صح هذا التعبير — استعمالهم اللغة العربية فى إنتاجهم المتصل بالدين والعبادة والتاريخ وغيره . »

هذه جميعا كلمات مجملة لـكنها تـــدل الباحث على مفتاح الحياة العقلية التى كانت تتحرك فى المجتمع ألإسلامى فى الدور الأول من نضجه. ولـكن صاحب هذا النضج الفكرى — ثم طغى عليه — تطور روحانى آخر . وهنا يعرض شفيق غربال للحركات الصوفية التى ظهرت فى البلاد التى أظلها الإسلام .إنه يولى الحركات الصوفية أشد الاهتمام ، ويبدو أن أحداً لا يستطيع أن يفهم تاريخ المسلمين حـق الفهم ، إلا إذا تعمق فهم مذاهب المتصوفة فى مصر والعراق وفارس والهنـــد والشرق الأقصى والأندلس ، وإلا إذا تتبع أثر هؤلاء المتصوفة فى تاريخ أوروبا ، وبخاصة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين .

يقول شفيق غربال فى ذلك ، إن الصوفية لم تنل من الذكر ما يتكافأ وأثرها العظيم كمنهج من التفكير الخالص ، ولا كشعر ولا كعاطفة ، وإنما أتيح لها أسمى ماوصلت إليه من الأثر ، لأنها كانت اتجاها منظما موجها للحياة . كانت تظهر دائما حالات فردية من « التحول » أو « الاستقرار » ، أو من الاستجابة لنداء خفى ، ولكن فى العصر التاريخى من القرن الحادى عشر إلى السادس عشر — أصبحت الصوفية نظاما اجتماعيا تاما ، وأوسعت المجال لأن يتمرس الناس بمواهبهم ، وأن يقوموا بضروب النشاط التى يختلفون إليها ، وحققت أمانى الأفراد من كل الطبقات ، فالتطور الصوفى عنده — كما كان عند كثير من مؤرخى الحضارة الإسلامية — كان محاولة لتنظيم الفرد والجماعة . ويكاد هذا يظهر لنا الناحية الدينية العميقة فى حياة شفيق غربال . ولعله أن كان يرى فى الصوفية تنظيما روحيا يشعر به فى أعماق نفسه ، كما كان يرى فى استقراء الوثائق والحوادث تنظيما فكريا فى حياته كوطنى ومواطن .

كان شفيق غربال معجبا بالمتصوف المصرى « الشعرانى » المتوفى سنة ١٥٦٥م ونقل عن د . ب . ماكدونالد وصفاله فى هذه الكلمات : « لقد ألف الشعرانى بين الخزعبلات وبين الإشفاق والحرص على قواعد الخلق السامى ، بين التواضع الاجتماعى فى أبعد حدوده ، والكبرياء والغرور الفكرى بصورة لانظير لها ، بين مقدرة أصيلة على فهم الفقه فى مذاهبه الاربعة، استسلامه الكامل فى تفكيره للنفحات الالهية التى كان يستروحها من خارج نفسه ، بين قوة على الصمت ابتغاء الحيطة إذا رأى منكرا يقلق راحته ، عنف فى الحديث الصريح إذا جبهته أشياء أخرى » .

أما عن التربية عند المسلمين ، فقد تناولها شفيق غربال تناولا يضفى الضوء على نظم التربية عندنا حتى فى هذه الساعة التى نكتب فيها ، فهو يشيد بالمدارس النظامية التى أنشأها السلاجقة تنفيذا للخطة الدينية والسياسية التى اختطها الوزير السلجوقى المشهور « نظام الملك » (١٠١٨ — ١٠٩٢ م) ، وقد حال « نظام الملك » فى

كتابة « سياسة نامة » أن يؤصل نظريات خاصة بالنظام الديني الذى اتخذه السلاجقة أساسا لسياستهم ، ومنبعا لمثلهم العليـــا . . . ويقول شفيق غربال . « ولم يأل السلاجقة جهداً فى اختيار الممتازين من رجال العلم ليدرسوا فى هذه الكليات . . . فكان الغزالى أحد أساتذتها » ، ولـكنه يعود فينقد اتجاه هذه المدارس فيقول:

« إن التنظيم الرسمى للتعليم العالى كان ذا أثر عميق فى التربية الإسلامية، فعلى الرغم من أنه أدى إلى إعادة النظام فورا، إلا أنه خلف آثارا بعيدة فى التربية الإسلامية لازالت تعانى منهـا حتى يومنا هذا . فهذا التنظيم الرسمى هو الذي أدى إلى الاعتماد على الذاكرة ، وحفظ النصوص المقررة عن ظهر قلب ، وهو الذى حمل الأجيال المتعاقبة على أن تستذكر نفس النصوص جيلا بعد جيل، وبالاختصار هو الذى أدى إلى الحالة التى أجملها سير « هاملتون جيب » حين قال :

« لم تـكن المعرفة جهدا للوصول إلى المجهول ، بل كانت عملية ميكانيكية لتحصيل ما هو معروف » .

***

(٥) « تكوين مصر » (*)

تلك إذن لمحات فى المشكلات الأساسية التى عالجها شفيق غربال فى معرض دراساته الإسلامية . أنت ترى أن منهجه فى كتابة هذا التاريخ ، يختلف اختلافا بينا عن المنهج الذى اختطه حين كان يكتب رسالته لنيل إجازته الدراسية، وأنت ترى هنا أن المؤرخ الفنى قد كون لنفسه فلسفة استقامت له حين عالج كل هذه المشكلات ، وهو فى كل ذلك لايزال حريصا على أن يكون موضوعيا ، ولا يبدى أحكامه إلا فى كثير من

(*) The Making of Egypt·

التحفظ ، ولا يكاد يستخدم كلمة « أنا » إلا بمقدار . ولكن حدث لحياة شفيق غربال الفكرية والروحية ، ما حدث لكبار المؤرخين . وأنت تدرس حياة مؤرخين مثل : « نرجو » و « جيبون » ، و ما كولى « فماذا ترى ؟ ترى أنهم قد كونوا لأنفسهم محيطا عقليا خاصا ، فإذا كان الأمر يتعلق ببلادهم هم أنفسهم كونوا لأنفسهم — إلى جانب ذلك — أفقا روحانيا خاصا . ولأمر ما أحس شفيق غربال فى مايو سنة ١٩٥٢ ، أنه فى يوم من أيام هذا الشهر قد بلغنا نقطة تحول — فاصلة — فهل كان يحس فى خافية النفس إن نقطة التحول هذه كانت على أن تقع فى الثالث والعشرين من يوليو سنة ١٩٥٢ ، أى بعد مايو هذا بأقل من شهرين .

ومهما يكن من أمر ، فقد أقبلت الثورة فى هذا اليوم وفتحت آفاقاً بعيدة من الآمال — وألقى شفيق غربال عشرة أحاديث إذاعية فى «تكوين مصر»(١). ومن هذه الأحاديث العشرة — على صغر حجمها — تبدو الذروة من حياة شفيق غربال كمؤرخ . هنا ينطلق المؤرخ الفنى فيكتب آراءه صريحة فصيحة لا تفتقر إلى بيان . إنه لا يخفى كلمة « أنا » وراء اتجاهاته الموضوعية . هنا تظهر الفلسفة الأخيرة التى توجت جهوده ، وهنا يكتب ولا يكون بطله محمد على ، ولا نابليون ، ولا مصطفى كامل ، ولا سعد زغلول ، ولا عدلى يكن ، ولا أيا من هؤلاء : بل يكون بطله الأول والأخير هو « مصر » وهى الأحرف الثلاثة التى تبلجت له من وراء كل الدرسات التى عاناها .

إنها أحاديث عشرة تناولت فلسفة التاريخ المصرى فى أزهى عصورها ، وفى أحطها ، لكنها تتناول قبل كل شىء المجتمع الذى سكن وادى النيل . وهنا يرسم شفيق غربال خطته الأساسية فى هذه الأحاديث — الخطة الأساسية الأولى هى

---

(١) وقد ترجمت إلى العربية .

«أن مصر هبة المصريين » لا هبة النيل كما قال «هيرودوتس» أبو التاريخ. إن المصريين هم الذين فلحوا الأرض وسقوها وزرعـــوها ، واستثمروا ذخائرها ، وجابوا شواطئها ، وأقاموا العمران فى أرجائها ، واتخذوا العمد والأبنية من صخورها. وعلى الرغم من كل ما اعتور حياتهم فى تاريخهم الطويل ، فقد كان لهم الفضل كل الفضل فى المدنيات السامقة التى قامت على ضفتى النيل .

يقول شفيق غربال فى ذلك « أيا كان المصريون ، وأيا كانت الطريقة التى تأثر بها النمط الجنسى بمن وفد إلى مصر ، ومن جال منهم فى أرجائها فإننا نزعم أن مصر هبة المصريين . إننى أعلم — ومنذا الذى لا يعلم — أن النيل هو منبـــع حياتنا ، وأن مصر هى البـــلد التى تقع على ضفتيه ، وأن حـــدودها لم تتحد بما امتدت إليه على الجانبين إلا بقدر ما تحـــدده الآفاق التى وصل إليها ماء النيل ، ولـــكن — على الرغم من ذلك — فإن المصريين هم الذين صنعوا مصر . انظر إلى النيل كيف يقطع أربعة آلاف ميل من مناطق خط الاستواء إلى البحر المتوسط ، فلن تجد إلا مصرا واحدة على طول مجراه . إن هبة النيل كأى هبة طبيعية لاتـــكون إلا عمياء لايقر لها قرار . فإذاً تركت هذه الهبة وشأنها ، فإنها قد تخرب أو قد تنشىء مستنقعات تتفشى منها الملاريا . إن عـــوامل التخريب تقتضى وجود فئة من البشر حتى يحيلوا الخراب إلى نعمة : وقد كان البشر فى مصر — هم المصريون — وهم الذين فعلوا ذلك (ص ٥ من النص الانجليزى — طبعة دار مصر للطباعة).

وهو يستند فى ذلك على نظرية يذهب إليها أستاذه « أرنولد توينبى » ويفصلها بعض التفصيل فى موسوعته عن سجل تاريخ الحضـــارات .. إنها هى نظرية « التحدى والاستجابة » ، وقد فصلها « أرنولد توينبى » فى الفصـــل السابع من الجزء الأول ، ونرى هذا التفصيل مختصراً فى « مختصر دراسة التاريخ » الذى

ترجمة الأستاذ فؤاد شبل ، وراجعه شفيق غربال . (دراسة التاريخ ، الجزء الأول من ص ١٤٧ إلى ص ٢٣٢) .

إن تحديات البيئة هى التى تخلق الحوافز التى تنتج بدورها حضارة من الحضارات و « الحافز نحو الحضارة تزداد قوته فعلا ، كلما ازدادت البيئة صعوبة » . الحافز الأهم هو ذلك الذى ينتج فى البلاد الصعبة . وكانت البيئة الطبيعية فى مصر من أشق البيئات ، وتعرضت مصر فى دهر من الدهور إلى عصر طويل من الجفاف ، وهرب كثير من سكان مصر إما إلى الشمال ، وإما إلى الجنوب ، ولكن الذين بقوا فى مصر صمدوا لهذا التحدى ، واستطاعوا أن يقيموا المدنية السامقة التى قامت فى الصعيد والدلتا . ولا يقتصر الحافز على الاستجابة للظروف الصعبة فحسب ، بل هناك حوافز أخرى تتصل بالاستيطان فى أرض جديدة ، وحافز ناتج عن الضربات التى تحيق بالمجتمع أو الهزائم التى يلقاها فى ميدان القتال . ثم هناك حافز نسميه حافز « النقمة » وهو تعويض المجتمع عن نعمة سلبها : كل هذه الحوافز هى التى تدفع إلى الاستجابة لتحديات البيئة ، وهى هى التى قصد إليها شفيق غربال حين استند إليها فى نظرته الشاملة إلى تاريخ الحضارة فى مصر .

والواقع أن مذهب « التحدى والاستجابة » هو خير ما يفسر تاريخ أية حضارة ، وهو ينطبق بنوع خاص على تاريخ الحضارة فى مصر ، بل هو ينطبق بنوع أخص على الظروف التى نعيش فيها فى بلدنا حتى هذه الساعة . وقد كان يؤمن شفيق غربال بذلك أشد الإيمان : وكان يؤمن كذلك أشد الإيمان بأن مصر هى القلب الصميم » الذى تجمعت حوله كل الأحداث ، وأن موجات الغزاة التى وفدت إليها فى طول تاريخها ، لم تفت فى هذا القلب الصميم . فلا الفرس ، ولا الإسكندر ، ولا الرومان ، ولا البطالمة ، ولا العرب ، ولا الترك ،

ولا الفرنسيون ، ولا الانجليز ، ولا برابرة العصر الحاضر ، أثروا فى شخصية مصر التى صمدت لهؤلاء جميعا .

إن هذه الأحاديث العشرة التى تحدث بها شفيق غربال ، واجتمعت فى هذا الكتيب الدقيق الفنى ، لجديرة بالتوســـع فى الدراسة . إنه هنا ينم عن عقيدته العليا فى كتابة التاريخ ، وفى وصل التاريخ بالحياة الحاضرة . لقد بدأ كتابة الأول طالبا للعلم ، ولـكنه انتهى فى هــذه السلسلة الـكريمة إلى أن كل مواطننا وفيلسوفا ومتصوفا ، يؤمن بمصر إيمانه بالله تعالى .

رحم الله أستاذى شفيق غربال .

(أحمد خاكى)